نقطة البداية

كلمة قائد الثورة الاسلامية لدى استقباله هيئة أمناء جامعة المذاهب الاسلامية

٢٧ ذي الحجة ١٤٢٢ هـ . ق ــ ١٢ آذار / مارس ٢٠٠٢م

لقد كانت ثمة حاجة ماسة لوجود مثل هذه الجامعة منذ انتصار الثورة الاسلامية وقيام الجمهورية الاسلامية ومنذ أن بزغت هذه الفكرة وطرحت كانت تتركز على أن لا ندع طلابنا الجامعيين السنّة ــ حنفيين كانوا أم شافعيين ــ يشعرون بالحاجة الى الذهاب الى خارج بلادنا لطلب العلم، سواء كانت في باكستان او الهند او المملكة العربية السعودية، وأن نحول دون استغلال طلبهم للعلم من قبل أعداء الجمهورية الاسلامية، بل نمكّنهم من الدراسة وطلب العلم هنا ونوفر لهم الغذاء العلمي الكامل الذي كانوا يرومونه ويطلبونه تماماً كما في جامعات المملكة العربية السعودية وباكستان وحتى مصر التي كان يتوجه إليها ايضاً بعض الطلبة ــ وهم قلة ــ ولكن كان أغلبهم يتوجه الى باكستان، وقبل أربعين أو خمسين عاماً كان مقصدهم الهند، وفي الفترة الأخيرة كانت غالبيتهم تذهب الى المملكة العربية السعودية.

وبالطبع كانت سنّة دراسة الفقه غير الشيعي رائجة بين الإمامية، فقد كان الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى يدرّسون في بغداد فقه المذاهب المختلفة ومنها الفقه الحنبلي.

وأتذكر أنني قرأت في سيرة المرحوم السيد مهدي بحر العلوم أنه ذهب الى مكة المكرمة وبقي فيها مدة عام او عامين. وكان يدرّس فيها ويأتيه فقهاء مختلف المذاهب ــ وخاصة المالكية والحنبلية ــ ويدرسون لديه ويستفيدون منه. وعلماؤنا أيضاً كانوا يدرسون عند علماء آخرين، فالشهيد الأول والشهيد الثاني ايضاً مارسا ذلك، وخاصة الشهيد الأول الذي كان كثير السفر والترحال الى جميع البلدان الاسلامية وطلب الاجازة من جميع العلماء، ودرس لدى الكثير منهم وروى الحديث عن الجميع .. كانت هذه سنّة طيبة.

وهذه كانت منذ البداية أحد أهدافنا وهو هدف جيد، ولذلك فكلما انصب الاهتمام على هذا الاتجاه كان من الصواب والحق.

وقلتم أنكم خصصتم للتقريب بين المذاهب أربع حصص دراسية وأنا بالطبع لست معارضاً لهذا، لكني أعتقد أن (التقريب) ليس درساً (وحسب)، أي أنه من أجل تحقيق التقريب فليس معروفاً بالضبط جدوى تخصيص درس معين لذلك وما مدى تحقيقه الهدف المقصود. بالطبع فإن نفس وجود هؤلاء الطلاب الى جانب بعضهم بعضاً أمر طيب، وتواجدهم في صف واحد ودراستهم لدى استاذ مشترك وتعايشهم مع بعضهم بانسجام يجعلهم يتعودون على التفاهم والتعايش وبالتالي يحصل بينهم التقريب أتوماتيكياً، كما أنه يتعايش الآن أهالي بعض المدن المختلطة من الشيعة والسنة منسجمين.

وفي العهد البائد في ظل النظام الشاهنشاهي نُفيتُ الى مدينة ايرانشهر. حينذاك كان أكثر من نصف سكانها من الشيعة والنصف الأقل من السنّة، وكانوا يتعايشون معاً ويتعاطون ويتعاملون وللسنة مساجدهم وللشيعة مسجد آل الرسول (ص)، وحين وجودي هناك اكتسب مسجد آل الرسول رونقاً خاصاً فكنت أرى الشباب السنّة يشاركون أيضاً في صلاتنا ويستمعون محاضراتنا. والتقريب يعني هذا الأمر. لا الشيعة كانوا يسبّون احداً ولا أولئك كانوا يهينون هؤلاء، كانوا منسجمين معاً، ويستمعون الى كلام بعضهم بعضاً ويتفاهمون فيما بينهم، ويساعدون على تحقيق التقريب، وربما يحصل نقاش مذهبي، فلا مانع من ذلك طبعاً إذا أرتأيتم واتفقتم على وجود درس خاص للتقريب ووجدتموه ضرورياً فلا مانع لدي، بيد أنني اعتقد أن التقريب أمر تطبيقي وسلوكي ويتجسد في كيفية تعامل الاستاذ والطالب.

لاحظوا أن كتبنا الفقهية كانت منذ ما قبل الشهيد الأول ـ على الأقل ـ حتى عهد العلامة، مليئة بآراء أهل السنة ايضاً. انظروا كتب (المبسوط) و(التذكرة) و(المنتهى) وكتب العلامة.

وكتاب (الخلاف) اساساً يتمحور حول ذكر آراء أهل السنّة في مقابل آراء الشيعة. وفي (التذكرة) والكتب الأخرى أدرجت آراء أهل السنة لابصفتها آراء مخالفة ومعارضة للشيعة بل بصيغة (قال الشافعي ...)، هذه الفتوى الأولى للشافعي وهذه الثانية وهكذا ... وكانت هذه الطريقة متبعة حتى زمان (العلامة) ـ أي حتى القرنين السابع والثامن ـ كان هذا النهج متبعاً ومتعارفاً.

وطبعاً اختلف الوضع منذ زمان الشهيد الأول حيث حصل ذلك إثر تصرفات وممارسات المماليك الذين كانوا حاكمين في مصر والشام وأماكن أخرى، وقد ألحقوا الأذى والتنكيل بالشيعة كثيراً، مما أثر على أذهان الشيعة بشدة.

إذ كان المماليك شديدي التعصب، حيث كان القسم الموجود منهم في الشام أشد تعصباً وايذاء للشيعة، حيث كان الحمدانيون في الشام في أيديهم الحكم ويقولون في الأذان (أشهد أنّ علياً وليّ الله) و(حيّ على خير العمل)، ولذلك فقد كانت هناك ردود فعل ضدهم وأخذ الحكام المماليك ينتهجون اسلوب التشدد، وكنموذج على ذلك اقدامهم على قتل الشهيد الأول الذي استشهد هو ومن بعده الشهيد الثاني على أيديهم، ولربما لو لم يفر الكثيرون وينجون بأنفسهم للاقوا نفس المصير.

على أي حال، فإثر هذه الاحتكاكات الكثيرة، غدت كتب الفقه الشيعية خالية من آراء أهل السنة، ومنذ الشهيد الأول وما بعده، لم نعد نرى في كتب الشيعة فتاوى السنّة. بينما كان ذلك متداولاً وعادياً، والآن ايضاً لا يوجد ثمة مانع أمام فقهائنا عندما يناقشون مسألة ما أن يذكروا آراء واستدلال علماء السنة ايضاً، فإذا كان يمكن تأييده ايدوه وإلا رفضوه.

لقد رأيت احياناً أن فقهاءنا عندما يذكرون رأي الأصحاب يوردون ويقبلون رأي أبي حنيفة. وبالطبع فإن ذكر هذه الخواطر والذكريات والسوابق يساعد ــ بحد ذاته ــ على التقريب.

أما بشأن الاهتمام بتدريس الفلسفة فإن بعض الأشخاص يعتقدون أن الاسلام لا حاجة له بالفلسفة، رغم أن الفلسفة هي الاطار المحافظ على

العقيدة. وما عدا ذلك فإن الأبحاث الفلسفية في حد ذاتها راقية وسامية. والفلسفة تستخدم في الحرب العقائدية ايضاً. انكم ترون أن بوش وبمجرد أن يرتكب حماقة ما ويزعم شيئاً، يبادر فوراً خمسون او ستون شخصاً فيضعون لذلك اطاراً وركائز فلسفية وايديولوجية. وعندما أقول (فوراً) فهذا لا يعني أن تسويغ وتوجيه ذلك قد تم فيما بعد، فمن المؤكد أن الأمر قد مُهِّد له من قبل. فكل ظاهرة تلاحظونها في الغرب ـ في المجال الأجتماعي والاخلاقي ـ تجدون جذورها تعود الى احدى هذه الفلسفات (الوضعية)، ولا علاقة لها بالمسيحية في الغالب. أما إنها من بنات أفكار (كانت) او الفيلسوف الفلاني.

وبالطبع فإن فلسفاتهم فيها هذه الصفة الايجابية البارزة ـ وهذا ما ينبغي أن نوفره في فلسفتنا نحن أيضاً ـ وهي أن لها امتداداً اجتماعياً وسياسياً، أما فلسفتنا فهي لا تخرج عن اطار الذهن، فنحن لدينا قدرة فائقة في التنظير والاستدلال، ولكن ليس لفلسفتنا امتداد سياسي. بينما نرى في فلسفة الملا صدرا وفي مباحث الوجود وكثير من الأبحاث الأخرى، اننا نستطيع أن نوجد لها امتداداً سياسياً، ونبلور شكل الحكومة، فضلاً عن الأخلاق والسلوكيات الاجتماعية. وعلى هذا الأساس، فإن عليكم أن تهتموا بالفلسفة وتبحثوا فيها بشكل مستقل.

ودرس (العرفان) هو الآخر جيد، وأنا لا أعارضه، إذا استطعتم أن تجدوا قلباً شائقاً للمباحث العرفانية واستاذاً مناسباً يدرس الطلبة مادة العرفان فهذا حسن جداً.

وهناك نقطة أخرى تخص اللغة والحوار. فعدم اجادتنا لاسلوب المحاورة فانه يعتبر ـ حقاً ـ نقصاً لدينا. فبين علمائنا كان هناك من

يعرف اللغة العربية بل وينظم شعراً بها، لكنهم عندما يواجـهون عربياً ويريدون أن يتكلموا معه كلمتين ويسألوه (كيف أحوالكم) يتحيرون! وهـذا يدل على أن القدرة على التكلم باللغة العربية هي غـير معرفـة اللغـة العربية.

لاحظوا ماذا تحتاجونه. ولقد قلت مرة لمسـؤولي وزارة التربيـة والتعليم نفس هذه العبارة. فنحن لسنا بحاجة الى أن نجعل طالبنا الجامعي وتلميذنا يستطيع أن يتكلم مع البقال الفلاني او الشخص العـادي باللغـة العربية ويتواصل معه، ويقيم معه علاقة، وهذا ــ بحد ذاته ــ ليس عملاً سيئاً، بل هو حسن، لكنه ليس من ضمن أولوياتنا الأساسية. نحن بحاجـة إلى القدرة على قراءة النص وفهمه؛ فطالبنا الجامعي عندما يقرأ القرآن أو الصحيفة السجادية ينبغي أن يتمكن من فهمـهما، فالصحيفـة السـجادية تتضمن دورة كاملة من المعارف الاسلامية التي لم يشر إليها أحـد إلـى الآن.

حقاً، إن المعارف التي تتضمنها أدعية أئمتنا لا توجد مثيلاتها فـي أي رواية، وإذا وجدت فإنها ليست بهذا الوضوح والتأثير. ففـي دعـاء الندبة ودعاء كميل والأدعية المختلفة توجد كثير من المعارف. وشـعبنا يقرأ هذه الأدعية بإيمان وتعلق واخلاص، لكنه لا يفهم ــ في الغـالب ــ معانيها. علينا أن نملأ هذا الفراغ.

ينبغي تعلُّم اللغة العربية لفهم النصوص بالدرجة الأولى. لدينا ثلاثة اتجاهات في مجال تعلّم العربية. أحدها هو ما ذكرته آنفـاً، وهـو تعلـم العربية باتجاه خاص وهو قراءة النص والتمكن من فهمه. والآخر دراسـة العربية وفقاً لتوجّه الحوزات العلمية. فقراءة النص لا تتمتع لديهم بالدرجة

الأولى من الأهمية، الاهم عندهم هو فهم معناه الدقيق وجوانبه وأبعاده، لذلك فانهم مجبورون على أن يتعلموا جميع احتمالات (لكن، إلا)، لأن الأمر يتعلق باصدار الفتوى، ويريدون أن يستخلصوا من الحديث أو الآية الحكم الشرعي، وهذا يحتاج الى التدقيق في النص، وهذه لا تتوفر في النص العادي. وبالطبع فهذا يشمل ايضاً التوجّه السابق. أي انه عندما يتعلمه الشخص يكون بامكانه أن يقرأ النص بسهولة لكنه عمل صعب ولا حاجة لنا به.

وهناك توجه آخر هو تعلّم المحاورة والمكالمة؛ فالقدرة على المحاورة لا تعني ايضاً قدرة الشخص على قراءة نص ما قراءة صحيحة وطرح معناه. فأنا أتحدث أحياناً مع بعض الأصدقاء باللغة العربية — من أجل أن أقوّي لديّ القدرة على المحاورة والتكلم باللغة العربية — أجد لزاماً عليّ أن أقدم لهم معاني بعض الكلمات العربية، لأنهم لا يعرفون معنى تلك الكلمات، إذ تقال أحياناً بعض التعابير التي يجهلون ماذا تعني.

النقطة الأخيرة هي؛ أن عليكم — من الناحية السياسية — أن تحاولوا تغليب الأجواء الثورية هناك، فحياتنا ونشاطنا ونجاحنا رهين بالأجواء الثورية، وأن المخلصين الذين لا يعرفون معنى هذه الكلمة في غفلة من امرهم حقاً. إذا استطعتم أن تشيعوا الأجواء الثورية والتحمّس للحكومة الاسلامية والنظام الاسلامي، والاعتزاز بالامام الخميني (قدس الله سره) والحكومة التي أرسى دعائمها الامام، في الأوساط التي تمارسون عملكم فيها فإن الكثير من مشاكلكم تُحلّ، وتجتذبون إليكم قلوب الشباب، وتسهل الكثير من أعمالكم. الشباب في العالم الآن منجذبون الى

الامام الراحل، رغم مرور عدة سنوات على رحيله، بيد أن ذكراه وآثاره مازالت تهيّج القلوب وتستقطب الناس، وهذه نقطة مهمة، فلا تدعو الغبار يعلو على هذه السمة ولو قليلاً.

ان درس (جذور الثورة الإسلامية) جيد جداً، ولكنه ليس مجرد درس... انكم وضعتم حصة دراسية لهذين الأمرين ولكني اقول يجب ان تطفح الروحية الثورية والايمان على جميع الحصص الدراسية...

أيدكم الله ووفقكم ...